من وحي الصوم :

هيام المتصوفين

للشيخ محمد رجب البيومي

(إلى أخي الأستاذ محمود فهمي البيومي ، وصديقي الروحاني الأستاذ عبد اللطيف عيسى)

الحب ! معنى ثائر عاصف ، شعر به كل إنسان تتأجج في صدره لوعة ، وتشتجر في جوانحه عاطفة ، وهو على تباين أنواعه وتعدد ألوانه ، مؤرق مفزع ، يطوي بساط الأنس والدعة ، ويغرس أشواك الضجر والتبرم . وسل الوالد أي حنين مشبوب يمزق أحشاءه حين يتشوف إلى نجله النازح راجياً آملا . وسل الصديق أية لهفة حارة تضطرم في إحساسه حين يتطلع إلى أنباء صديقه الغائب ، ويتلمس أسباب الحديث عنه في لذة وشغف .

وسل الصب العاشق كم يذرف من الدموع الملتهبة إذا وقفت الحوائل في وجهه ، وقامت السدود دون مبتغاه . بل وسل العارف بربه كم قاسى من المصاعب وتكبد من الشاق حتى رفرفت روحه في أجواء الملائكة ، فنعمت بلذتها الكبرى ، وظفرت بسعادتها الباقية ؟

والحب الإلهي أسمى أنواع المحبة وأقدسها ، وإن كان يكلف صاحبه من دمه وروحه ما تقشعر له الأبدان ، فيقضي سحابة يومه وسواد ليله ، شارد العقل ، مبلبل الخاطر ، يخاطبه الناس فلا يسمع ، ويستعطفه ذووه فلا يجيب ، فهو — في نظرهم — حاضر كغائب ، وحي كميت ، وما يزال يذيب نفسه ويعذب أحاسيسه حتى يصير شبحاً هائماً يُرى في الوهم ولا يكاد يصدقه العيان . وهكذا الروح إذا قوى اتصالها ، وشع ضياؤها ، تمرست بالجسد الضيق فأنحلته وأسقمته ، وهذا كله قليل غير كثير في جانب ما يبتغي العارف من لذة الوصل ، ونعيم المشاهدة ، ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر ...

وليس التصوف حدثاً طارئاً في الشريعة الإسلامية ، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم من كبار المتصوفين ، وكانوا من النقاء والصفاء في درجة سامية . ثم خلف من بعدهم خلف نزموا نهجهم السوي وساروا في طريقهم العلوي ، وإذن فقد كان التصوف بمعناه الفطري من صفات المسلم الأول يقبل عليه في ارتياح ، وينجذب إليه في حنين ، حتى تبدلت الحال وانغمس المسلمون شيئاً فشيئاً في ما جلبته الحضارة من الترف والنعيم ، وهنا بدأ التصوف يظهر بصورة جديدة ، فقد أغضب هذا المصير قوماً عرفوا الله حق معرفته فاعتزلوا الناس ، ولاذوا بقمم الجبال ومطارح الفلوات ، نائين عما يغمر الحضريين من لذة ومتاع ، وفي هذه الخلوات الهادئة هبطت عليهم أشعة السماء ، فغمرت أرواحهم بالنور ، ومدت أجنحتهم بالقوة ، فحلقوا كالنسور في آفاق رحيبة ، ورزقوا عيوناً بصيرة نافذة ، ترى ما لا يراه الناظرون .

والشريعة الإسلامية لا تنكر الاتصال السماوي ، بل إنها تذهب إلى تأييده أتم تأييد بما تذكره عن كرامة الولي وحرمة العارف ، وقد أسهب أئمة الإسلام في الدفاع عن المتصوفين ،

النقشبندية [1] عن مراد الأزبكي النجاري النقشبندي ، وكان ينفق عن سعة ، مثل أرباب الثروة وأهل الدنيا ، ولم تكن له جهة يعرف منها كيف يفي بأدنى مصرف من نفقاته . وتوفي سنة ١١٦٢ هـ بعد عودته من الحج مبكياً عليه ، ورثاه الشعراء وحزنت عليه مصر والشام وألوف من مريديه وأتباعه . ودفن بالقرافة في تربة المجاورين وقبره مشهور يزار ويتبرك به .

هذا هو الأستاذ الصديق ، الدمشقي ، القدسي ، دفين مصر الذي ترك لنا في رحلاته الكثيرة تراثاً دفيناً نرجو أن نكشف القراء العربية بعض آثاره تنويراً للأذهان عن قرن لا نعلم عنه إلا القليل أو ما هو أقل من القليل ...

أحمد سامي الخالدي

(١) أنشأ هذه الطريقة بير محمد في القرن الثامن الهجري (٧١٧ — ٧٩١ هـ) — (١٣١٧ م — ١٣٨٨ م) الملقب بالشاه ومقامه في عارفان على مسافة ساعة من مدينة بخارى ، ويفضل هذه الطريقة المغول والتتار والفرس ، وللنقشبندية في القدس زاوية عند درج القوائمة في الجهة الشمالية من الحرم القدسي ، وهي عامرة منذ أكثر من ٢٠٠ سنة ، ويرأسها الآن الصديق اللطيف العارف بالله الشيخ يعقوب الأزبكي النجاري النقشبندي

مستعدلين بفيض زاخر من الآيات والأحاديث ، وممن برزوا فى هذا الميدان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، وقد نصصت عليه بذاته لأنى أرتاح كثيراً إلى منطقه الواضح ، فهو لا يتمسك بالأدلة الظنية ، ولايلتفت إلى الموضوع من الأحاديث والأساطير وجاء ابن خلدون فأيد القوم تأييداً لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، فقد سلم لهم جميع ما يدعونه من كشف واتصال ، وخوارق وكرامات . وإليك ما ذكره فى مقدمته ، قال : « ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها ، والروح من تلك العوالم ، وسبب ذلك الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس ، وقويت أحوال الروح ، وغلب سلطانه ، إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ، وينكشف حجاب الحس فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية ، والعلوم اللدنية ، وتقرب ذاته من الأفق الأعلى ، أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة ، فيدركون من حقائق الروح ما لا يدرك سواهم ، ويتصرفون بهمتهم وقوى نفوسهم فى الموجودات العقلية ، وتصير طوع إرادتهم ، والعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يأمروا بالتكلم فيه » .

وما دامت الروح قد اتصلت بالله هذا الاتصال ، فلا عجب إذا هامت فى حبه ، ونسيت العالم الأرضى بما يدرج فيه من إنسان وحيوان ، بل إن من القليل عليها أن تهيم هياماً متصلا فى سلوكها الروحى ، فقد قطفت الثمرة الحلوة ، ومنحت الوسام الرفيع .

والحب الإلهى كالحب الإنسى ، منطقته القلب ، ونافذته الإحساس ، فإذا قويت دواعيه ، واشتدت دوافعه ، فإنه يسيطر على الجسم سيطرة تامة ، فتتحول الأعضاء جميعها إلى ألسنة ناطقة بذكر الحبيب ، فهى من شغلها الشاغل فى هيام متصل وسكر دائم ، وأنت تنظر — مثلا — إلى عاشق الفتاة ، فتجده شارد اللب ، نحيل الجسم ، ممتقع اللون ، فلا تستكثر أن ترى عاشق الذات العلوية متصفاً بهذه الصفات ، بل إن المنطق يقضى أن يكون أكثر نحولا ، وأشد ذهولا ، حيث كان ذا مقصود أعظم ، وأمل جامح طموح .

ولايسعنا وقد تعرضنا لهذه الناحية أن نذكر أن الحب الإلهى يكون فى غالب أمره تطوراً لحب إنسانى ، فكثير من العارفين قد ذاق فى مقتبل شبابه مرارة الحب الأرضى ، وعانى ما يعانيه العاشق من منع وحرمان ، وهو بذلك قد مرن على السهر والنواح ، فإذا ما هطل الفيض السماوى على روحه ، بعد وقت قريب أو بعيد ، كان على استعداد تام للسير فى طريقه المملوء بالعرق والدموع ، حتى ينتهى منه بسلام .

يذكر الكاتبون أن تصوف الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى كان خاتمة لرحلة لذيذة قام بها فى عالم الصبوات الحسية ، فقد شاهد فى مكة فتاة فارسية ذات عقل راجح ، وذكاء متوقد ، ثم هى على جانب فائق من الحسن ، فطارحها الأحاديث ، وتساقيا كؤوس الجدل العلمى ، وما زال يحن إلى سمرها الشهى ، حتى سرقت قلبه ، وملكت زمام مشاعره ، فساق فيها القصائد الرائعة ولم يشأ أن يخفى أمره معها بعد تصوفه ، بل كتب عنها فصلا ممتعاً جاء فيه : « وهى طفلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتزين المحاضر ، وتحير الناظر ، ساحرة الطرف ، عراقية الظرف ، إن أسهبت أتعبت ، وإن أوجزت أعجزت ، شمس بين العلماء ، بستان بين الأدباء ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها ، أشرقت بها تهامه ، وفتح الروض لمجاورتها أكمامه » ...

والذى يقرأ مقطوعات ابن عربى يلمس إخلاصه فى حبه ، ويحمد له أن تعلق بذات علم وفضل ، فوقع الطير على شكله ، وانجذب الشبيه إلى شبيهه ، والعجيب الغريب أن الشيخ الأكبر قد حاول أن يشرح قصائده فى صاحبته شرحاً لا يتفق مع ما صرح به فيما سبق أن نقلناه عنه ، فهو يحول أبياته إلى ميدان آخر غير ميدانها الأصيل ، مع أن القارئ العادى لا يمكن أن يطمئن إلى شرحه الملفق ، فما ظنك بمن يتعقبونه من أذكياء الناقدين ، وإذا كان ابن عربى قد أعلن غرامه الإنسانى فى نثره ، فلم يلجأ ثانية إلى اللف والدوران فى شعره الجميل ؟ !

هذا قول يحتاج إلى دليل ملموس ، فليسمع القراء أولا هذه الأبيات :

مرضى من مريضة الأجفان ... عللانى بذكرها عللانى
بأبى طفلة لعوب تهادى ... من بنات الخدور بين الغوانى

من بنات الملوك من دار فرس   من أجل البلاد من أصبهان
لو ترانا برامة نتعاطى   أكؤساً للهوى بغير بنان
والهوى بيننا يسوق حديثاً   طيباً مطرباً بغير لسان
لرأيتم ما يذهل العقل فيه   يمن والعراق يعتنقان ! !

ثم ليسمعوا ثانية ما قاله الشيخ في شرح البيت الأول — على سبيل المثال — « الرض ، الميل ، أقول لما مالت عيون الحضرة المطلوبة للعارفين من جانب الحق سبحانه بالرحمة والتعاطف إلينا أمالت قلبي بالتعشق إليها » .

فليت شعري ما هذا الالتواء ، وعلام التستر بعد الوضوح ؟ وإذا كنا نعلم أن صاحبته الأولى فارسية من بنات الملوك في أصبهان ، فكيف يمكننا أن نفهم هذا الفهم الغريب ؟ وهل يعيب الصوفي أن يسجل صبابته الأولى بشعر يتغنى به الناس ؟ ! لعل الشيخ قد أراد أن يبرز للناس مقدرته العجيبة في التأويل والتخريج جرياً على ما اشتهر من ادعائه العريض ! !

إن الذي يتعبنا كثيراً في غزل المتصوفين هو أننا نحمله حملا على المعاني الروحية المقدسة ، سواء أنطق بذلك أم لم ينطق ، وهنا توجد المشكلة العويصة ، فكثير من الأبيات تصدم العقول بأحجار ثقيلة ، فلا يمكن أن تنطبق على الحقيقة الإلهية التي يعنيها العارفون ، وهذا ما دفع بعض الشراح إلى التحامل الزائد على ابن الفارض رضي الله عنه ، ولو أننا أوجدنا الفوارق بين النسيب الإنسي والغزل الإلهي لأرحنا عقولنا من التعب الشديد . وهل يعيب المتصوف أن يكون ذا لونين في غرامه مادامت عاطفته ملتهبة في كلتا الناحيتين ؟ وما دامت هناك فوارق زمنية تفصل بين النوعين ، حيث أن من المسلم به أن الهائم بربه لا يمكنه أن يلتفت إلى غيره بحال من الأحوال ؟ وهل نقول لشاعر تصوف بعد أن قضى شبيبته في الغزل الحسي : مزق نسيبك الأرضي ، وافتح لك في كتاب القريض صحيفة جديدة ، كيلا يفهم نسيبك الأول على حقيقته الإنسانية ؟ ! لم كل هذا أيها الناس ! !

على أن العواطف الآدمية في الغزل الإلهي لا تختلف عنها كثيراً في النسيب الإنسي ، فالعاشق يذكر الغيرة والنحول والسهد كما يذكر ذلك العارف ، ولا ريب فالينبوع الدافق للشعر الغزلي هو الشعور ، وهو هو في شتى الأوضاع لا يختلف توهجا واشتعالا عند المحبين ، ومن هنا كانت النتيجة واحدة عند الرجلين فالجنون والصرع والتيه قواسم مشتركة بين الدنفين ، وإذا كان الأصمعي قد تجول في الصحارى الشاسعة ، وتنقل بين الخيام النائية ليسمع آهات المدلهين ويروي أشعار المتيمين من عشاق البادية ، فلم يفته أن يدلف إلى المغارات السحيقة ، ويتسلق القمم الشاهقة ويطوف بالبيت المعظم ليرى بعينيه دموع العارفين تتساقط ، وزفرات الواصلين تتصاعد ، علماً منه أن هؤلاء لا يقلون عن غيرهم ، لذة حديث ، وغرابة اتجاه ، بل إن سائلا سأله عن الحب فلم يسمعه كلام قيس أو عروة أو جميل ، بل ذكر له حديث هائم عارف ، وقد مهد له بقصة طريفة وصف في آخرها الحب فقال : « جل أن يحد ، وخفي أن يرى ، كمن كمون النار في الأحشاء ، إن قدحته أورى أو تركته توارى » . وأمثال هذه النوادر لا تندرج تحت حصر ، ولولا أنها وجدت ظلا من الحقيقة ما كان لها هذا النصيب الوافر من الذيوع .

ولقد كان الهائمون الواصلون يعتزون بغرامهم الإلهي اعتزازاً يفوق كل اعتزاز ، بل عدوه مفخرة عالية وميزة سامية لا تتاح إلا لمن حباه الله بالفضل الجزيل ، وهذا صحيح لا اعتراض عليه ، ولكن تنافس هؤلاء فيما بينهم قد دفعهم إلى مغالاة لا تسلم من الاعتراض ، فكل محب واصل — إلا من عصم الله — قد ادعى في أكثر من مناسبة أنه فاق غيره في محبة ربه ، ووصل إلى ما لم ينله أحد من الخلائق ، فليت شعري ما مبلغ هذا الادعاء من الصحة ؟ وهل يمكن المدعي أن يقيم البينة على صحة ما يقول ، وهو يرى الأنبياء والملائكة والسابقين من الإنس والجن ، كل أولئك يتزاحمون بالمناكب ويتدافعون تدافعاً شديداً في مضمارهم الخطير ، نعم قد يكون إخلاصه الزائد وتفانيه الشديد من عوامل هذا الادعاء ، ولكن أليس من الحسن الجميل أن يتواضع في حبه ويتنازل عن كبريائه في مثل موقفه العظيم ، فينال تقدير مريديه وسامعيه ، بل ربما جرهم تواضعه إلى تقدير منزلته تقديراً يصل بها إلى ما يريد . وأذكر أني حين قرأت قول ابن الفارض :

كل من في حماك يهواك لكن   أنا وحدي بكل من في حماكا

شعرت كأني مختنق مغيظ ، وما زلت أنقب وأحلل ، وأنتقل من تعليل إلى تعليل حتى انتهيت إلى قوله :

ولقد يجل عن اشتياق ماؤه شرفاً فواظمئي للامع آله

فاربحت كثيراً لتواضعه ، وكأني نسيت ما سلف من ادعائه ، فأقبلت على مطالعة ديوانه بلذة وشغف ، ولا ريب فقد قام البيت الثاني من البيت الأول مقام الاستغفار من الذنب العظيم ! !

وإذا تركنا ابن الفارض وانتقلنا إلى الشيخ الأكبر محيي الدين نجده قد جال في ميدان الادعاء جولات خطيرة عاصفة ، فقد عز عليه أن يفهم الناس أن النبي المرسل في درجة تفوق منزلة الولي الواصل ، فانبرى يوازن موازنة جريئة بين النبي والولي ، ثم أعلن — في غير تريث — « أن الرسول لا يمتاز إلا بالتشريع ، أما الولي فميزته الكبرى هي الاطلاع على أسرار الوجود » . وهذا ادعاء أي ادعاء ، ولكنه من شطحات القوم . وكم للصوفيين من مزالق محرجة ؟ ! فهل تكون مفقودة لدى معشوقهم الحبيب ؟ !

إن الرسول قدوة مثلى للناس ، فكل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير، فنحن ملزمون بالتمسك به ، أما الولي فليس من ذلك في كثير أو قليل ، بل إن فريقاً كبيراً من رجال الدين قد نصوا على وجوب التحفظ الشديد مع الأولياء ، وخاصة بعد أن اتسعت هوة الخلاف في المسائل الكلامية ، وانتشر على يد فريق من المتصوفة القول بمبادئ غامضة لا تدركها الأفهام . ومهما يكن من شيء ، فقد جعل رجال الشريعة للقوم حالتين : حالة الصحو ، وحالة الغيبوبة ؛ أما الأولى فهم ينطقون فيها بما يتفق مع الشريعة ، لأن العارف مستيقظ منتبه ، فهو مؤاخذ على كل ما يصدر منه كما تؤاخذ العامة سواء بسواء . وأما الحالة الثانية وتسمى بحالة السكر عند بعض الكاتبين ، فلا يلام فيها الواصل على رأي ، أو يؤاخذ بجريرة قول ، لأنه غائب عن وعيه ، قد ستر إدراكه بغواش متلاحقة لا يعلم لها كنه . ويذكرون أن أبا بكر الشبلي رضي الله عنه قد دخل على الجنيد ومعه زوجته ، فأرادت أن تستتر عنه ، فقال لها الجنيد : تمهلي تمهلي ... فهو في حالة سكره لا يدرك شيئاً مما أمامه ! وحين مضت مدة غير يسيرة أشار لها بالاستتار حيث قد انتقل صاحبه من حال إلى حال . ومعلوم أن الجنيد رحمه الله من القلائل الذين يتمسكون بتعاليم الشريعة ، فلا يرون أنفسهم من فصيلة أخرى ترتفع عن الناس ، ومع ذلك فقد عرف صاحبه في حالتيه ، ومن عسى أن يكون أنبه منه في الادراك والتمييز ؟ !

وكنت أوثر أن نعتبر المتصوفين في حالة واحدة مدى الحياة ، وهي حالة الغيبوبة والسكر ، فلا نجعل لهم من الصحو وقتاً نؤاخذهم فيه على الأقوال والأفعال ، وإلا فقد أدت هذه المؤاخذة إلى الإطاحة برءوس مفكرة . وكتب التصوف مليئة بأخبار من استشهدوا في هذا الميدان . وكم يقع القارئ في حيرة شديدة حين يرى الصوفي العارف ينطق بما يعتبر بعيداً عن الحق ، فيساق إلى مصرعه السريع ثم يأتي — بعد — من رجال الدين وأعلام الشريعة من يبرر قوله ويوجه مذهبه توجيهاً لا يخرج عن المنطق السديد — كما فعل الغزالي مع الحلاج مثلا — فبأي جريرة إذن سفك هذا الدم ، وكيف غاب هذا التأويل عمن أثاروا الغبار ، وأيقظوا السيوف من الأغماد ؟ الحق أنها حيرة شديدة أتلمس الخروج منها فلا أستطيع !!

إن التصوف محنة قبل أن يكون نعمة ؛ فالعارف يكابد من الأهوال ما يقض المضجع ويسيل الدامع ، ثم هو بعد ذلك يتهم في دينه ، ويساق إلى حتفه كما تساق الشياه !!

ولكن أي هول يكابد ؟ لا يقدر ذلك غير من سار في الطريق بضع خطوات ، فعرف كيف تحارب النفس ، ويضطهد الجسد ، وتندلع في القلب ألسنة اللهيب !!

إن الشاب في عنفوان قوته يصوم اليوم الواحد في ألم وامتعاض وما يكاد يسمع الآذان عند الغروب حتى يهجم كالليث على المائدة الحافلة بما لذ وطاب ، فما يذر من شيء أتى عليه ، وهؤلاء الساكين يصومون الأيام الطويلة ولا يفطرون بغير الماء وكسر يابسة من الخبز لا تقوى على تحطيمها الأنياب !!

إن الشاب الفتي لا يتسلق قنن الجبال إلا في وضح النهار ، قوة مجندة من رفقائه ، وعدة مدخرة من الأسلحة الفاتكة ، يتقي بها الهوام والسباع ، وهؤلاء الساكين يسمون في حنوس الليل إلى التلال والهضاب فيتفكرون في ملكوت السموات والأرض فإذا حطمهم اللغوب ، هجعوا قليلا في الكهوف والمغارات ! !

(البقية في العدد القادم) **محمد رجب البيومي**